بيني وبين وهب روميّة

د. عبد النَّبيّ اصطيف

تصغي إليه بسمعك وقلبك فإذا هو الأستاذ، وتسرف في الإصغاء إلى دقيق ما يحدِّثك عنه فيأسرك بيانه، ويداخلك إحساسه المرهف في تدبُّره لمادة حديثه، وسرعان ما تحلِّق معه في عوالمه السامية. ذاك هو وهب رومية (1944-2025)، الذي عرفته منذ ستة وخمسين عامًا، كان فيها الصديق الغالي على قلبي وقلوب الكثيرين من زملاء وطلاب وقراء، والزميل الملهِم بحاله ومقالِه لكريم الأفعال وبديع الأقوال. عرفته عام 1969 معيدًا في **قسم اللغة العربية وآدابها** في **جامعة دمشق** يدرِّس الأدب الجاهلي لطلاب السنة الأولى فيصرفهم عن كل شعر آخر بما فتنهم به من حديث عن شعر أغواه بسحره الخفي فانصرف إليه شرحًا وتحليلًا وتفسيرًا يأخذ بالألباب ويأسر النفوس ويعانق الأرواح؛

وعرفته زميلًا بعد عودتي من الإيفاد في جامعة دمشق حيث كنا آخر العازِبَين الصامِدَين بعد أن وهبنا قلبينا للعلم والمعرفة ولاسيما الأدب ذلك الفن الجميل، وعرفته بعد زواجنا في العام نفسه في صيف عام 1990 زميلًا في **جامعة صنعاء** نأنس بزيارته كلما دعتنا مناسبة إلى قصدها من تعز، وكلما تيسر له مع جالية **جامعة دمشق** فيها زيارة هذه الأخيرة؛

وعرفته زميلًا بعد عودتنا من اليمن نلتقي كل يوم تقريبًا نتبادل فيه الحديث في شأن من شؤون الدرس الأدبي، أقرأ له، ويقرأ لي، ناصحًا، ومشجِّعًا بروح الأخ الأكبر الذي يرجو لأخيه الأصغر التقدم والارتقاء بعمله ليرضي طموح أساتذته ومحبيه فيه؛

وعرفته في نهاية عام 2005م في ندوة **كاتب وموقف** التي ناقشت موضوعًا مهمًا، مطروحًا آنذاك على نحو واسع في أوساط دارسي الشعر العربي، هو ما أضافه النقد المعاصر في قراءتنا للشعر الجاهلي من فهم لطبيعة الأدب ووظيفته، والتي شارك فيها الصديق سعد الدين كليب من **جامعة حلب**، والمرحوم وهب رومية الذي كان كتابه "**شعرنا القديم والنقد الجديد**" (عالم المعرفة، الكويت، 1996) محور ما دار في الندوة من نقاشات بين المشاركين فيها، وبينهم وبين جمهور **المركز الثقافي العربي** في أبي رمانة؛

وعرفته بعد ذلك شريكًا أمينًا على مشروع "**الأدب في بلاد الشام**" بمجلديه (تاريخ ومختارات، اللذين تجاوزت صفحاتهما ألفي صفحة)، لا يبخل برأي، ولا يضن بمقترح، وهمّه نجاح العمل وإخراجه بالصورة

المثلى، على الرغم من الصعوبات التي وضعت في طريق نشره، والتي كان آخرها تغيير عنوانه إلى **الحركة الأدبية في بلاد الشام؛**

وعرفته كذلك عام 2011م شريكًا فعالًا في برنامج "**الخطة الوطنية لتطوير برامج ومناهج التعليم الجامعي- المرحلة الأولى: بناء المعايير المرجعية الأكاديمية الوطنية**"، عندما عملنا معا على وضع **المعايير المرجعية الوطنية لقطاع العلوم اللغوية والأدبية،** والذي أخذ من جهدنا وجهود ثلة كريمة من الزملاء من سائر الجامعات السورية نحوًا من عامين، دون أن يثمر ما توخيناه منه؛

وعرفته أخًا صادق الود يبذل المشورة والرأي في أي مشروع بحثي لمقالة أو كتاب أو لمقاربة ما لأدبنا خلال تدريسنا لطلاب الماجستير الأدبي، والماجستير النقدي في العقد الأخير.

وكان مصدر هذه السنين من العمل الجاد المشترك الثقةُ المستندة من جانبه إلى خبرته الواسعة في الأدب العربي: قديمه وحديثه، فضلًا عن نزاهته في أي رأي يصدر عنه، مع سعيه الدائم إلى أن يسدد ويقارب ويوفق، وغرضه من كل ذلك إشاعة السكينة والطمأنينة في بيئة القسم التي كانت تتناهبها أحيانًا الأهواء والمصالح الدنيوية. وإن نسيت فلا أنسى مساعدته لي في ترتيب سفري في مهمة البحث العلمي التي كلّفتنيها جامعة دمشق في ربيع عام 2011، وكان إذ ذاك عميدًا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، واقتراحه عليّ تكثيف محاضراتي في الشهور الأولى من العام، لأمضي في مهمة البحث العلمي، وأعود قبل امتحانات الدراسات العليا، وأتِم واجباتي في التدريس والامتحان على أكمل وجه، وأعطي بذلك لكل ذي حق حقه.

وكذلك فإنه كيف لي أن أنسى حضوره للمحاضرات العامة التي ألقيتها في السنوات الأخيرة عن عبد السلام العجيلي وحسام الخطيب في مجمع اللغة العربية بدمشق، وتعليقاته التي كانت تغني ما أقدمه، خاصّة أنه كان يعلن دائمًا أنه قرأ كل شيء كتبته ونشرته، وهو في ذلك صادق لأنه في كثير من الأحيان كان يقرأ ما أكتبه قبل نشره وبعده، وذلك فضل لا يبذله إلا محب للعلم وأهله.

والواقع أنه إذا ما وضع الدارس مسعى وهب رومية المتميز في تدبُّر النص الأدبي في إطار الدرس الأدبي في قسم اللغة العربية وآدابها في **جامعة دمشق، فإنه لامحالة سيرد جذوره إلى عَلَمين بارزين من أعلام هذا الدرس** هما المرحومان **شكري فيصل وأحمد راتب النفاخ**، اللذان استقى من أولهما قراءته المتمعنة للنصوص Close Reading وسعيه إلى سبر أغوارها العميقة مستعينًا بكل ما يقع بين يديه من معلومات تتصل بها وتبث فيها حياة جديدة تجعلها ذات صلة بحياتنا الراهنة، بوصفنا قرّاء لها في القرن العشرين؛ في حين استمد

من ثانيهما مقاربته الفقه-لغوية للنصوص، وبخاصة في المرحلة الأولى من تدبُّره لها مما كان يسميه بشرح الأبيات، ومن خلال الجمع ما بين المقاربتين فإنه كان يخرج دائمًا بتفسير رائع، للنصوص الشعرية بشكل خاص، يتسم بالعمق والرحابة، مما يجعلها نصوصًا تتدفق، بل تفيض حياة متجددة. وكان يمضي منطلقًا من عملية التفسير Interpretation هذه إلى إقامة الشعرية Poetics، أو النظام الأدبي Literary System الخاص بها، وهو ما يتجلى بشكل واضح في كتابيه عن **الرحلة في القصيدة الجاهلية، وبنية قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد**، اللذين استند فيهما إلى قراءات متمعنة لنصوص الرحلة والقصائد المدحية، وبعبارة أخرى فإنه كان ينطلق من عملية التفسير إلى إقامة نظرية أدب داخلية، أو شعرية خاصة بالنصوص المُفسَّرة، وبذلك تتكامل على يديه عمليتان أساسيتان في الدرس الأدبي هما القراءة المتمعنة للنصوص، فيما يمكن نعته بالنقد التطبيقي، والتنظير المنطلِق منها، فيما يمكن نعته بالنظرية الداخلية التي تحكمها، أو الشعرية الخاصة بها.

ولما كان وهب رومية يؤمن بوحدة الأدب العربي واستمراريته بوصفه تراثًا عريقًا حيًا في آن معاً فإنه كان لا يتردد في إقامة موازنات ومقارنات بين نصوصه يتجاوز فيها الزمان والمكان ليدلل على نحو ما على حضور هذا الأدب في تكوين الأديب العربي في مختلف العصور والأمصار، وهو ما يتجلى في كتابه **الشعر والذاكرة: التناصّ بين الشعر العربي في القرن العشرين والشعر الجاهلي** (دار الثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2019).

وصفوة القول إن **قسم اللغة العربية** وآدابها في **جامعة دمشق**، و**مجمع اللغة العربية** بدمشق، ومحبي الشعر العربي: قديمه وحديثه، وطلابه ودارسيه، في الوطن العربي، قد خسروا برحيل وهب رومية، طيب الله ثراه، دارسًا من طراز رفيع أخذ نفسه بالتنقيب، بأدوات فنية دقيقة ومتطورة غاية التطور مستمدة من قراءاته الواسعة في النقد المعاصر، في المتن الشعري العربي، ليستخرج لُقىً ثمينة تحوّلت على يديه من مجرد وثائق Documents إلى صروح Monuments بل كنوز من تراث عريق وحي في آن معًا.

***